منحة في محنة

في حي الميدان في حلب كانت نشأتي ولهذا الحي طبيعة خاصة فقد كان فيه خليط من جميع الطوائف ، مسيحية ، أرمن، مسلمون ، وأيضاً أكراد ومن الطائفة العلوية، حتى أن زوجة أبي كانت مسيحية فأفرز هذا التنوع في الحي انفتاحاً عندنا وقبولاً للأخرين، حتى في بيتنا نفسه كنا نحتفل بأعياد المسلمين والنصارى.

كانت حياتي في الحي وفي المدرسة دافئة بقدر دفء تلك الأيام ففي السبعينات لم يكن هناك وسائل تواصل ولا انترنت ولا هواتف فكنا نقضي أوقاتنا كأطفال في الشارع نروي القصص ونلعب وكانت الحياة في الحي اجتماعية جداً فالزيارات بيننا كانت كثيرة حتى التجهيز للأعياد والمناسبات ومونة البيت كانت مشتركة بين الجيران، وكان لدي أصدقاء من جميع الطوائف حتى صديقي من الطائفة العلوية تفاجأت أن أخاه أصبح ضابطاً في الأمن العسكري بإدلب وآذى الناس كثيراً حسب ما سمعت من رفاق السجن من مدينة إدلب لاحقاً، وكأنه قد نسي ذلك الجو الدافئ الذي نشأنا فيه.

أما عن مدرستي كان لمعلمي في الصف الخامس أثراً كبيراً في حياتي و استمر إلى الآن فقد رسم لي بداية مسار الالتزام الديني الذي كنت أعيشه فبفضله التزمت بالصلاة في المسجد في كل وقت، ولا زالت كلماته ونصائحه في بالي فهي التي ساعدتني كما قلت على تشكيل شخصيتي.

عندما وصلت المرحلة الثانوية درست في مدرسة المأمون، وكانت هناك عادة جميلة لم أجد من يفعلها هذه الأيام وهي أن بعض طلاب الجامعة أو الأساتذة كانوا يساعدون الطلاب في دراستهم في المسجد فالبعض يقدم دروس فيزياء والبعض الرياضيات وفي كل المواد وطبعاً كانت الدروس الدينية موجودة وقد كنت ملتزماً بهذه الدروس مما جعلني أبقى في جو الالتزام الديني، عندما كنت في السادسة عشرة كنا في العطلة الانتصافية للمدرسة تم اغتيال مدير المدرسة من قبل مجهولين، وعند عودتنا للمدرسة بعد انتهاء العطلة وجدنا سجادة في غرفته عليها آثار الدماء وبعدها بأيام تم اعتقالي فربط الكثير من الطلاب ربط اعتقالي بهذه الحادثة لكن لم تكن لي علاقة أبداً بماحصل.

من الدفء إلى الصقيع

في 21 شباط من عام 1981 حدث ما غير حياتي كلها، كنت في تلك الأمسية ما أزال طالباً في الصف الحادي عشر وكنت أكتب وظيفة الإنجليزي في منزلي الدافئ لتداهم دورية للأمن منزلنا بحثاً عني ، عندما قالوا اسمي قال لهم أبي" لا بد أنكم مخطئون لأن أحمد مايزال صغيراً" ككل أب يرى ابنه طفلاً مهما كبر ولكن كان لقوات الأمن رأي آخر فهم يريدونني حقاً بالاسم قالت لهم أمي: دعوه يلبس ثيابه فقط، قالوا لها: نصف ساعة وسيعود، صممت أمي أن ألبس قائلة لهم اخوه اخذتوه منذ تسعة أشهر لمدة خمس دقائق و لم يعد للآن وكان معروفاً كبيراً منها فهذه البيجاما ساعدتني على الدفء في عتمات الزنزانات التي عشت بها، كان أخي قد تم اعتقاله منذ تسعة شهور ولم نعرف عنه شيئاً، فدخلت في السيارة معهم وأنا أوطد نفسي أني مقدم على المجهول.

ركبنا في السيارة التي تم اعتقالنا بها، خرجت من منزلي حوالي الساعة التاسعة مساءاً وأهل الحي يتفرجون كان عدد من يريدون اعتقالهم من حينا ستة أشخاص وكنت أنا أولهم فلم يتم المباشرة بضربي لأن العرف عندهم أن يتم ضرب المعتقلين في السيارة عندما يكتمل العدد، ولكن عنصراً منهم أخذ ساعة يدي ووضعها في جيبه، عندما وصلوا لمنزل الشخص السادس المطلوب لم يكن في البيت وكان عند بيت عمه فأخذوا أخوه ليدلهم على المنزل، كان في حي باب النيرب حيث الحارات الضيقة والشوارع الفرعية، عندما وصلوا للشخص السادس تم اعتقاله وعند وصوله للسيارة نظر إلينا ثم التفت للوراء وهرب مسرعاً لم يعرف العناصر والضابط ماذا يفعلون فلم تكن ردة الفعل هذه متوقعة فتركوا اثنين من العناصر عندنا ووضعوا البنادق في رأسنا وذهب الباقون خلف الشخص الذي هرب، بدأوا بإطلاق النار في الهواء كي يخاف و يتراجع عن هروبه، ولكن عادوا خاليي الوفاض خائفين مرتبكين والضابط المسؤول عنهم بدأ بضرب أحدهم بأخمص البندقية على رأسه حتى أدماه وقال لهم: عندما نصل الفرع سترون ما أفعل بكم، بسبب توترهم وخوفهم مما حصل لم يضربونا في الطريق وعند وصولنا لفرع أمن الدولة في حلب أخذوا أسمائنا في قسم الذاتية وبالعادة يتم تحويلنا للتحقيق فوراً كي يستغلوا خوفنا وضعفنا ولكن جاءت دورية من لبنان ومعهم معتقلين أحدهم مصاب برصاصة في رجله وقالوا لرئيسهم هؤلاء مسلحون وخطرون جداً فانشغلوا بهم عنا وأدخلونا للزنازين دون تحقيق، بعد ثلاثة أيام تفرغوا لنا واستدعونا للتحقيق طبعاً بعد الضرب الذي لا بد منه بدؤوا بالتحقيق ودائماً الأسئلة تكون من نظمك؟ انت حملت السلاح؟ من قتلت؟، وكان جوابي أني لا أعرف شيئاً عن هذا وأنا طالب في الثانوية أهتم بدراستي و مستقبلي والشيء الوحيد الخارج عن المألوف في حياتي أنه زارني أحد أصدقاء أخي من فترة وسألني عنه، فقالوا لي: هذا الذي نريد أن نعرفه، فقد عرفت فيما بعد أنه اعتقلوا صديق أخي المذكور من فترة قريبة في درعا وهو أعطاهم الأسماء التي زارها و ذكر اسمي دون كنية وعند اعتقال شبان من الحي عرفوا اسمي الكامل، قلت لهم: لقد جاء وسأل عن أخي فقالوا لي: أين هو الآن قلت لهم لا أعرف وقد كان أصلا معتقلاً عندهم.

فانتهى التحقيق وقالوا لي: أنت شخص صادق وعندما يُفرج عنك اهتم بدراستك ومستقبلك ولا تهتم بهذه الأمور، وقعت على أقوالي وفهمت من كلامهم أني سأخرج قريباً.

تم تحويلنا للسجن المركزي في حلب ، وبعدها بأيام جاء قرار ترحيلنا أنا والأربعة الذين معي كنا ثلاثة دون الثامنة عشر من العمر و اثنين أكبر قليلاً، ركبنا في الحافلة وعند وصولنا لدمشق لم يتوفقوا (ظننا أنهم سيلسمونا لقيادة الأمن بالعاصمة) وأكملوا لمدينة درعا إلى فرع أمن الدولة هناك على اعتبار أن القضية تابعة لهم لأنهم هم من اعتقلوا اول شخص بقضيتنا، في درعا أعادوا التحقيق وكان جوابنا نفسه بأننا لا نعرف إلا ما قلناه فخطب بنا رئيس الفرع في ذلك الوقت وقال لنا نفس الكلام بأنكم شبان صغار وانتبهوا لدراستكم ....الخ، قرروا إعادتنا نحن الثلاثة دون الثامنة عشر لمدينة حلب وإرسال الشابين لدمشق لمحاكمتهم كما زعموا، و مع دورية دمشق تمكن الشبان من الهرب ، و أعادتنا الدورية التي أقلتنا لفرع أمن الدولة في حلب مرة أخرى، كان طريق العودة مع الدورية لحلب مليئاً بالأحلام والخيالات عن عودتي لأهلي ورؤيتهم أثناء الست ساعات التي قضيناها في الطريق والتي كنا ننتظر فيها الإفراج عنا بناء على ما قالوه لنا، عند وصلولنا لفرع أمن الدولة في حلب ودخولنا للفرع جمعنا رئيس الفرع بغرفته وبدء بضربنا وإهانتنا وقال لنا: هل حسبتم أنكم تضحكون علينا كما فعلتم بدرعا لا يمكنكم خداعي فأنا أعرفكم جيداً، رموا بنا في الزنزانات الفردية كل واحد منا بزنزانة فشعرت بخيبة أمل كبيرة، فقد كنت انتظر الإفراج والآن عدت لنقطة لصفرتيممت بجدار الزنزانة و صليت ركعتين ودعوت الله وقلت في دعائي يارب أي ذنب اقترفته ليجري معي ما يجري، بكيت كثراً و نمت بعدها حوالي الساعتين صحوت وإذا بآية قد كُتبت على حائط المنفردة وهي أعوذ بالله من الشيطان الرجيم " واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا" منحتني هذه الرسالة التي تلقيتها من رب العالمين القوة والصبر وقلت في نفسي يارب سلمت لك شو اللي بدو يصير يصير، وانفرجت اساريري بعد هذا الجواب الرباني وصرت أحاول التواصل مع أصدقائي في الزنزانات التي بقربي وأنا اشعر بالقوة والسعادة.

بقيت ثمانية أيام في الفرع بعدها تم تحويلنا للسجن المركزي مرة أخرى، والتقيت بأناس طيبين جداً وقد سمحوا وقتها بالزيارات أسبوعياً، فكان أهلي يزورونني وكنت في كل زيارة عندما آراهم و أفارقهم بعد الزيارة أعود حزيناً كأني اعتقلت من جديد ، انتبه أحد الأشخاص لحزني ولهمي وكان شاباً أكبر مني بعشر سنوات وكان قد درس في كلية الاقتصاد في المانيا فقال لي:" نحن رب العالمين جابنا لهون مو ليعاقبنا، أكيد أنت تحب تطلع وتشوف أهلك وتكمل دراستك؟ قلت له: نعم فقال لي:" ربنا جابنا لهون لحتى يختبرنا ويمتحنا وكيف بدو يمتحنا ونحنا مع أهلنا و أحبابنا و كل شيء كما نحب فأين الاختبار؟ ربنا عم يختبرنا وبدو يعطينا الثواب إن نجحنا وبإذن الله بكون ثوابنا الجنة" تلك الكلمات بعثت الراحة في قلبي مرة أخرى وأشعرتني بالمسؤولية فقد أحسست أني نضجت على التفكير باللعب و لهو الطفولة وأنا الآن أفكر في أن رب العالمين خلقنا و يختبرنا ليكون لنا دور صالح في هذه الحياة .

بعد شهرين جاء دورنا لتحويلنا لفرع الخطيب في دمشق كباقي السجناء الموجودين في السجن المركزي و هناك أعادوا التحقيق منذ البداية وقرروا تحويل الجميع لتدمر ماعدا نحن الثلاثة فلم يثبت علينا أي تهمة، تم تحويلنا لسجن كفر سوسة وقد كان سجناً معقولاً يتوفر فيه الماء الساخن للاستحمام بعد ان فقدناه لأشهر وكان الطعام مقبولاً ، عند دخولي للمهجع سألني رئيس المهجع وهو من السجناء من أين أنتم؟ قلت له من حلب ، فأشار لي لسجناء من حلب بنفس المهجع وكان لطيفاً جداً ويحاول أن يساعد كل نزلاء المهجع ، حتى السجان الذي كان مسيحياً من درعا كان يستدعيني لأساعده في توزيع الطعام ويقول لي: إنك تشبه ابني وفي القريب ستخرج وليس عليك شيء، وفي أحد الأيام قال لي: أوراقكم تم إرسالها لتوقيع الإفراج من رئيس الفرع أنت وأصدقاؤك فلا تقلقوا وتذكروا أن هناك أشخاص لكم في دمشق يريدون لكم الخير إن احتجتم لشيء.

قرار الظالم يغير كل شي

بكلمات قريبة من الوداع ذكر لي السجان أن أوراقي عند رئيس الفرع لتوقيع الإفراج وقال لي: عنده اجتماع مع سيادة الرئيس هو وقادة الأفرع الأمنية وعندما يعود يوقعها، لنعرف فيما بعد أن حافظ الأسد قال لهم في الاجتماع: ممنوع أن يتم الإفراج عن أي شخص من الفروع حتى يتم تحويله للمحكمة في سجن تدمرو المحكمة تقرر من يستحق اخلاء السبيل ، أخذونا في اليوم التالي بحافلة وكل الظن أنها ستنقلنا لحلب وإذا بنا نصل إلى سجن تدمر لتبدأ مرحلة جديدة من حياتي ومختلفة عن كل ما رأيت بعد أربعة أشهر من الاعتقال.

الوظاويظ

عند الدخول لسجن تدمر كان هناك ما يسمى بحفلة الاستقبال(وهي عادة معروفة في الفروع الأمنية حيث يقومون بضرب المعتقلين القادمين) ولكن الاستقبال كان مختلفاً في تدمر حيث قاموا بضربنا 300 كرباج لأننا من الإسلاميين أما القضائيين فيكتفون ب 60 كرباج فقط، دخلنا المهجع ونحن نسمع من السجانين كلمة " الوظاويظ" فيقولون خذوا الوظاويظ لم نعرف ما تعني هذه الكلمة ولم نلقِ لها بالاً، دخلنا للمهجع ولم يكن فيه أناس من حلب فلم نعرف معنى هذه الكلمة، لكن فيما بعد عرفت أن هذه الكلمة معناها الكثير من العذاب الذي ينتظرنا، فالوظاويظ هم الذين دخلوا حديثاً للمعتقل وهم صغار ولهم نصيب خاص من التعذيب، فكان هناك ما يسمى التنفس وأنت تتوقع أن التنفس هو استراحة لكن كان له معنى أخر فهو حفلة التعذيب اليومية التي يمكن ان تنهي حياة اي شخص فينا بعشوائية كاملة وفق مزاج جلادينا، فكانوا يسألون أين الوظاويظ ويكون لنا قدر زائد من التعذيب والضرب ، بعد شهر انتقلنا لمهجع أكبر وقلنا لعلنا نضيع بين الناس ولا يتعرفون علينا لكن كان هناك خمسة من الوظايظ فكان لنا نصيبنا الخاص من التعذيب كل يوم وكان ذنبنا أننا وظاويظ.

حتى عند الحلاقة التي كانوا يخرجون المعتقلين لها كل شهر كان لنا نصيب خاص من الضرب أنا وأحد المعتقلين من بانياس لأنه لم تنبت لحيتنا بعد، فكان المعتقلين يخرجون ويقفون في كل صف عشر أشخاص من أجل الحلاقة والضرب طبعا، أما نحن الوظاويظ الذين لم تنبت لحيتنا فكان الشرطي يتفرد بتعذيبنا طوال الوقت حتى ينتهي الجميع من الحلاقة، وكنا نمزح مع بعضنا بأننا وظايظ ونقول أنت وظوظ وجاء الوظوظ ونضحك فكان المضحك المبكي، فهل هذا ذنب لنا بانكم اعتقلتونا ونحن ما نزال صغاراً أم ذنبنا أنه لم تنبت لحيتنا بعد.

بقيت على هذه الحال في المعتقل وفي عام 83 أي بعد سنتين استطاع أهلي زيارتي بعد أن دفعت والدتي الذهب لوالدة مدير السجن في ذلك الوقت كان أخي الأكبر ما يزال معتقلاً معي، وعند زيارتنا تفاجأت أمي بأنه ازداد طولي حوالي ال 20 سم وشعرت أنها تنظر لشخص آخر، فعمر السادسة عشر إلى الثامنة عشر يحمل الكثير من التغيرات الجسدية التي لم تشهدها والدتي.

وتمضي السنون ولا شيء يتغير سوى ألوان العذاب الذي نذوقها، حتى كانت رؤية سجانينا ممنوعة علينا أبداً ورفع الرأس يعتبر جريمة، لكن روائحهم لا تزال في الذاكرة فرائحة التعرق مع رائحة السجائر يعتبر المميز لرائحة هؤلاء وفي عام 1985 جاء مدير جديد للسجن وفرض طريقة جديدة للإهانة والتعذيب عند التفقد، فعلى المعتقل أن يقف ورأسه بزاوية قائمة على باقي بدنه لا لشيء ولكن لكي يلكمونا على حناجرنا ، وكأنهم يطبقون طريقة جديدة للتعذيب طبعاً هذه اللكمة على حناجرنا كانت مؤلمة جداً وتجعل صوتنا يختفي بالكامل لمدة أسبوع، وفي إحدى التفقدات جعل الشرطة يتراهنون هل يستطيعون الوصول لرأسي بما أني كنت طويلاً، فجاء أحدهم ورفسني ببسطاره على بطني فانحنيت ليضربني على عيني وتنزف و تغلق بعدها لشهر كامل .... لعله كسب الرهان لكنه خسر كل معنى للإنسانية يمكن أن يكون.

إلى صيدنايا

في عام 1986 تم فرزنا حسب الاحكام فكل الذين حكموا براءة أو دون الخمس سنوات وضعوهم سوياً في مهاجع مستقلة ، وجاء كثير من الحالات المرضية لمهعج الفرز وكنت في وقتها أساعد الطبيب بعد أن علمني حقن الآبر و توزيع الدواء الذي كانت كميته تفي بربع الحاجة ولكن اعتيرناه تحسناً أن يوجد دواء، فكنت أُعطي الناس أدويتهم في وقتها واحقن البعض الإبر ، في ذلك الوقت انتشر السل بين المعتقلين فمن أصل 108 أشخاص بمهجعنا كان منهم ستة عشر مصاباً بالسل وكانت بعض الحالات تصاب بنزيف شرياني أو نزيف في الرئة وكانت تعتبر حالة خطيرة ومعدية، فكانوا يخبرون السجانين بأننا يوجد لدينا إصابة مفتوحة كما اصطلحوا عليها في ذلك الوقت ، فخصصوا لهم باحة تسمى باحة السل وكانت مخصصة لعزلهم ورعايتهم كما يفترض لكنها كانت أسؤا من المهاجع نفسها، بعد فترة قصيرة أُصبت بإصابة مفتوحة فقد شعرت بتوعك وعند ذهابي للحمام وجدت الدم يخرج مع السعال وهذه علامة الإصابة المفتوحة، بلغ رئيس المهجع السجان بوجود إصابة مفتوحة، فقال له: انتظر للظهر ، و في صباح اليوم التالي أذاعوا قائمة أسماء وقالوا لهم: ضبو غراضكم وكان اسمي من بينهم فقال لي رئيس المهجع لا تقل شيئاً عن مرضك فحيث ما انتقلت هو افضل علاجاً من هذا المكان.

توقعنا أنه سيتم الإفراج عنا وإذا بهم يقتادوننا إلى سجن صيدنايا بدلاً من ذلك، كنا في العام 1987 يعني بعد ست سنوات على اعتقالي، كنا ستين شخصاً في صفين كل ثلاثين شخص مربوطين بجنزير واحد كما يُسمى عندهم، وعند وصولنا كان العناصر الذين عند باب صيدنايا يتحرقون شوقاً ليقوموا بحفلة الاستقبال وهم ينظرون إلينا كالكلاب المسعورة وينتظرون نزولنا، في هذه اللحظة جاء مدير السجن ومنعهم من ضربنا وقال لهم: ألا ترون كيف يبدون إنهم لا يتحملون الضرب و قد أخذوا نصيبهم في تدمر ، فقد كانت وجوهنا صفراء وأجسامنا كالهياكل العظمية.

بعد دخولنا المهاجع سألونا هل يوجد حالات طبية خاصة؟، فتمت معالجتي وبقيت قريب العام أتعالج من مرض السل ، وجدنا الحياة في سجن صيدنايا كأنه نعمة عودة إلى الحياة من جديد مقارنة بسجن تدمر (فلا يوجد تعذيب يومي إلى حد الموت) إلا لحالات خاصة والطعام كان مثل طعام العساكر المجندين.

فرح وحزن

في الشهر 12 من عام 1991 دخلوا للجناح الذي كان فيه مهجعي وأذاعوا عدة أسماء وقالوا لنا: أنتم إفراج ، في تلك اللحظة لم أعد أصدق حتى أن زملائي في المعتقل قالوا لي لقد سمعنا اسمك، كان شعوري في تلك اللحظة خليطاً من الحزن والفرح فأخي كان معي في المهجع، ولم يُفرج عنه ... ركض إلي وعانقني وقبلني وقال لي: سلم على أهلك...فذلك شعوري بالحزن ، طبعاً لا يتم الإفراج مباشرة عن المعتقلين ، فبقينا ننتقل من فرع لأخر لعدة أيام والهدف أخذ توقيعات وتعهدات منا بأننا لن نعمل في السياسة ولن ننتسب لأي حزب مؤيداً كان أم معارضاً، وكان رئيس المخابرات العامة يجمعنا كل 100 شخص في مكان واحد (يخطب فينا خطبة الوداع) يعطينا التعليمات بأننا يجب ألا نتحدث أبداً عما حصل معنا ، وإذا سئُلنا عن أحد الأشخاص فنجيب بحسب الحالة فإن كان معتقلاً معنا نقول لهم: كان معنا وقريباً سيفرج عنه، وسأله البعض إن كان قد توفي فماذا نجيب قال : قولوا لقد انتقل لمكان آخر لا نعرفه، ثم جمعونا في ساحة الفرع ووضعوا لنا الطعام وقالوا لنا: " كلوا فأبو باسل (حافظ الأسد) لم يرض أن تعودوا لبيوتكم جائعين" والمضحك أن أحد المعتقلين قال له: "يعني الحقير أبو سليمان وين" فهو لا يعرف أنه صار اسمه أبو باسل فقال له العنصر: "انقلع ولاك".

صدمة الفرح

عند وصولنا لكراجات حلب وجدنا الناس مجتمعين ليسألوا عن أقاربهم، فقد سمعوا بقرار العفو الذي أصدره حافظ الأسد بحق السجناء السياسين كما زعم وعند نزولي سألوني عن شخصين كانوا معنا وهم أبو اليسر وأبو الفضل وكنت أعرف أنهم استشهدوا منذ عام 1981 وصاروا يلحون في السؤال لكني لم أستطع إبلاغهم فالتعليمات أن لا نقول ذلك، فقلت لهم: " إن شاء الله بيلحقوا فينا" كما أراد النظام أن أجيب الناس، و صطحبونا في سيارتهم ، وعند وصولنا للحي كنا خمسة أشخاص تذكرنا كلام طبيب كان معنا بأن صدمة الفرح قد تؤثر على الإنسان كصدمة الحزن فيجب أن يتهيأ أهلكم لاستقبالكم وألا يكون الخبر مفاجئاً، فاتفقنا أنا ورفاقي الخمسة أن يذهب كل شخص منا ويبلغ أهل الآخر كي لا يصابوا بالصدمة من رؤيته بشكل مباشر ، ذهبت إلى منزل رفيقي عامر وصعدت الدرج ودققت الباب ، ففتح لي شاب قلت له: انت حسن (كان صديقي سابقا)قال: لا انا اخوه محمد وأنا أعرف محمد طفلاً والآن قد صار شاباً قلت: أين أبوك خرج أبوه وهو في ثيابه الداخلية فالساعة 1:30 في الليل ونحن في الشهر 12 من السنة، قلت له: انزل معي للطابق الارضي ونبه أهلك ألا يصدروا أي صوت ولا حتى زغاريد، كان الرجل يقفز على الدرج كيف لا وعنده إحساس بأنه سيلتقى بفلذه كبده، وأنا أقول له: على مهل حجي هيك ما بيصير، وصلنا وعانق ابنه ، فقال الأب مستغرباً: أنت من المعتقلين؟ قلت: نعم قال: لأني حسبتك من الأمن ، فلاحظت في نفسي أننا صرنا نتحدث مع الناس بلهجة الأوامر العسكرية وبقسوة لأننا لم نحتك ببشر في العشر سنين سوى بالقسوة والجفاء، ثم أوصلت بعض رفاقي و ذهبت برفقة أخرهم الى بيتنا وصلت للطابق السفلي الذي كان يسكن فيه إخوتي من زوجة أبي وقلت في نفسي أنام عندهم الليلة فهم شباب ولن يتأثروا كما أمي وأبي، فوجدت اسم شخص أخر على الباب فتوقعت أنهم باعوه، صعد صديقي للطابق للأعلى و وجد اسم والدي على الباب فقرعه و فتح له أخي الإصغر الذي كان في الصف التاسع.

أما أخي الذي كان في الجامعة كان مريضاً قال رفيقي: أين أبوك قال له : أحمد معك؟ فهم كانوا قد سمعوا عن العفو ويتوقعون خروجي قال له: نعم فركض هو وأخي الكبير مسرعين واستقبلوني في الأسفل كان أخي الذي في الجامعة يضمني ويقول لي: أنت أخي من لحمي ودمي، سألتهم أبوكم وأمكم في المنزل؟ لأطمئن بشكل غير مباشر أنهم أحياء فقالو لي: نعم ، دخلت المنزل وكان أبي يكاد يعجز عن الوقوف من صدمة الفرح، أجلسته على الكرسي وسألت عن أمي فقال في الداخل ، وكأنها لم تستطع الحراك من الصدمة دخلت إليها وعانقتني وقبلتني وكأي أم صارت تنظر إلي وتبكي وتنظر كأنها لا تصدق، ثم أردت أن أوصل رفيقي الذي كان معي إلى الأشرفية فقالوا لي : أين تذهب نحن نوصله وذهب أخي ليوصله لأهله.

بدأ الناس يتوافدون للسلام علي وكان من بينهم أستاذي في الصف الخامس الذي كان له أثر في حياتي ، وقال لي: إذا عرض عليك أي شخص عملاً فلا تقبل فعملك عندي، وكان مديراً في مصنع للألبسة وهو يعرف أني كنت أحب الرياضيات كثيراً وكنت قد تعلمت اللغة الإنجليزية مشافهة من أحد المعتقلين معي، فقال لي: تعمل في البداية أمين صندوق وتسجل في دورات محاسبة لتعمل محاسباً فيما بعد ، بعد فترة سجلت بدورات في المحاسبة وفي الكمبيوتر وكان أمراً جديداً علي وأشبه بالحلم، بعد أربع شهور عملت عنده في المحاسبة ولم تزل مهنتي حتى الوقت الحاضر.

لم لا تأتِ لزيارتنا

تزوجت بعد فترة ورُزقت بأربع بنات وصبي بقيت في حلب وكنت ملزماً أن أراجع فرع أمن الدولة كل شهر ليسألوني عن حركاتي وسكناتي وكل شيء ، وبعد عام تقريباً تم إستدعائي من قبل فرع الأمن العسكري وقالوا لي: " لم لا تأت لزيارتنا" وكأني سأزور متحفاً أو فندقا قلت لهم : أنا أراجع فرع أمن الدولة كل شهر.

قالوا لي: ونحن يجب أن نراك ولو في السنة مرة وكانوا يسألونني من أقاربك وما أسمائهم وماذا يعملون وسألوني إن كان أحد أقاربي منتسباً لحزب البعث فقلت لهم: أخي وابن خالتي، وبعد فترة رأيت ابن خالتي وقال لي: لقد فصلوني من الحزب بعد ست سنوات ولا أعرف السبب أما أنا فقد كنت أعرفه وهو أنه قريبي، حتى أطفالي كنت أخاف عليهم كثيرا ولم يكونوا في أمان فتبعة الاعتقال الظالم تلاحق حتى أطفالي، فقد كنت أقول لهم أنه تم سجني أيام الاحتلال الفرنسي ولم أكن أجرؤ أن أقول لهم لماذا سجنت ظلما لعشر سنوات ، حتى مديرة المدرسة قالت لابنتي لماذا لا تنتسبين لحزب البعث فقلت لها: قولي لها أبي كان في تدمر وستتركك ، وفعلاً تركتها ولا أدري لماذا لا يقبلون الانتساب وإن كنت لا أحبه هل خوفاً علينا من أن نتلطخ بأقذارهم أم خوفاً على نفسهم منا؟ في عام 2012 مع بداية الثورة نصحني صديق لي أن لا أبقى في سوريا، فهم يعتبروننا خلايا نائمة كحما ورد في مراسلاتهم الامنية وفعلاً خرجت طلباً للأمان لي ولأطفالي الذين كنت أخاف عليهم دوماً، استأجر لي صديقي منزلاً في مدينة غازي عنتاب ودخلت تركيا، وجدت عملاً في انطاكيا حيث عملت كمترجم للوفود التي تأتي لتوزيع المساعدات في مخيم أطمة، وكنت أضطر للسفر لانطاكيا والعودة لعنتاب في العطل ، ثم وجدت فرصة عمل في مدينة عنتاب فتركت عملي السابق وعملت في عنتاب.

الأمان

أما ما أتمناه لشعب سوريا بعد تحريرها من الظلم هو الأمان ، فأنا لا أتمنى أن يعيش أحد في الخوف حتى لو كان عدوي ، ولو فعل ما يستحق الخوف لكن لا أتمنى لأولاده أن يعيشوا بخوف، فليس هناك شيء أسؤا من أن يفقد الإنسان الأمان ويعيش بالخوف ، وأنا لاتفارقني ذكريات الخوف التي عشتها في السجن واسم الوظوظ الذي كان سبباً لأتلقى التعذيب والذل والإهانة.

كذلك كان سؤال يراودني كل فترة وبشكل يومياً في سجن تدمرلظروفه الصعبة: هل أنا مستعد للموت و لقاء الله ليعطيني نتيجة اختباره لي في الدنيا أم أننا نسينا الهدف من وجودنا في هذه الحياة فلذلك أتمنى أن لا يعيش السوريين الخوف مرة أخرى وأتمنى لهم الأمان و أن تكون الحياة الصالحة لهم سبباً للفوز بالاختبار يوم العرض العظيم.

رابطة معتقلي و مفقودي سجن صيدنايا
Association of Detainees & The Missing in Sednaya Prison